# يا... ابن
# الأربعين




إعداد
علي بن سعيد دعجم

دار القاسم

# يا ... ابن الأربعين

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار القاسم للنشر والتوزيع ، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

دعجم ، علي سعيد

يا ابن الأربعين./ علي سعيد دعجم.ـ الرياض، ١٤٢٥هـ .

٧٢ ص ، ١٢ × ١٧سم

ردمك : ٦ ـ ٨٧٤ ـ ٣٣ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الوعظ والإرشاد ٢ ـ الدعوة الإسلامية

٣ ـ الأخلاق الإسلامية أ ـ العنوان

ديوي ٢١٢ ١٤٢٥/٥٨

رقم الإيداع : ١٤٢٥/٥٨

ردمك : ٦ ـ ٨٧٤ ـ ٣٣ ـ ٩٩٦٠



الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ

العنوان : الرياض . طريق الملك فهد جنوب شارع التليفزيون

للمراسلات : الرمز البريدي ١١٤٤٢ ـ ص . ب ٦٣٧٣

الريـــاض هاتف ٤٠٩٢٠٠٠ فاكس ٤٠٣٣١٥٠

فرع جدة هاتف ٦٠٢٠٠٠٠ فاكس ٦٣٣٣١٩١

❖ البريد الإلكتروني sales@dar-alqassem.com

❖ موقعنا على الإنترنيت www.dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، وبعد:

فقد حطّت الأربعون رحلَها، فيا ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

جاء في صفة رسول الله ﷺ ومبعثه: أنه أنزل عليه القرآن وهو «ابن أربعين سنة»(١).

فكان عنوان هذه الرسالة (يا . . . ابن الأربعين): مشتقّاً من هذا الحديث، وأعني بها من بلغ الأربعين.

وهي موجّهة إليَّ، وإلى من تبلغه، رجلاً كان، أو امرأة،

---

(١) متفق عليه.

وفيها أنّا: **ما عُدْنا كما كنّا**، وليس المطلوب منا ـ الآن ـ كالذي كان قبل **الأربعين**، ولا بدَّ من التعايش بالحسنىٰ مع هذه الحقيقة، والعمل بما يلزم هذه المرحلة، والتوجُّه الصادق إلىٰ ما يبقىٰ وينفع؛ والتّخفّف مما يبلىٰ ويفنىٰ.

**والباعث الشخصي علىٰ كتابتها أسباب منها:**

١ـ تأمّل قديم في دلالة **الأربعين**، التي خصّها الله تعالىٰ بالذكر في آية الأحقاف!!

٢ـ ولسبب آخر؛ ألا وهو إحجام مني عن القيام ببعض الأعمال إلا بعد حلول **الأربعين**، كالكتابة، وأمور شخصية أخرىٰ، وذلك لقراءة سابقة، وقليلة ومتفرقة، عن **الأربعين**، مما شجعني علىٰ جمعها والزيادة عليها؛ خصوصاً بعد أن أصبحت ابناً لها؛ فزال بذلك سبب الإحجام.

٣ـ بعد إنهاء مسودّة هذ الرسالة؛ التي تتمدد يوماً بعد يوم، اقتنعت بكثير مما جاء فيها، كتقليل الخلطة، والإكثار من الدعاء الذي في آية الأحقاف المذكورة سابقاً، ولأنها معانٍ كريمة جاءت عن السلف ـ رحمهم الله ـ فأحببت أن تنتشر، ويؤكِّد هذا عليَّ أني لم أجدها ـ في حدود اطلاعي ـ مفردة ببحث مستقل.

وكلٌّ واحدٍ **ابنٌ لعَامه** الذي وصل إليه، كما هو مشتهر في لغة العرب، وكما في الحديث السابق.

أو **أخٌ للعمر الذي هو فيه**، كما قال سحيم بن وثيل:

**أخو الخمسين مجتمعٌ أشُدِّي**
**وتُجديني مداورةُ الشؤون**

وقد يكون المرء **صاحباً** للعمر الذي وصل إليه إذا كان طاعناً في السن، وهذا مشتهر في اللغة، **كصاحب الستين** فأكثر، وربما كان **صاحباً لها** لأنَّ الافتراق في الصحبة أكثر من النَّسب، وأسرع.

ذكر **ابن جرير** بسنده إلىٰ رسول الله ﷺ أنه قال: **«لقد أعذر الله إلىٰ صاحب الستين سنة، والسبعين»**[1].

وهذه الرسالة عن: **الأربعين**، وما يسبقها من شباب وفتوة، أو يحتفّ بها ويصاحبها كالشيب، أو يعقبها من كهولة: تنبيهاً أو تواصي، مناصحةً أو ذكرىٰ، بياناً أو موعظة، المهم أن تصل الرسالة.

وفيها إجابات علىٰ كثير من الأسئلة التي تقابلنا، ومنها: لماذا يُبَكِّر الشيب في الوصول؟ وهل يمكن أن نؤجِّله؟ فأردتُ

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤٢.

بقول الشاعر الذي أقرَّ به ؛ فماذا كان؟ (بتصرف يسير) .

**وقـــالوا شـــيبٌ قـــد عَـــلاك**

**وقـــد كـــبـــرت فـــقلتُ إنَّهْ**

وأسئلة أخرىٰ عن الخضاب بالسواد ، وثالثة عن عجلة البعض إلىٰ الخضاب مع قلة الشيب .

**هذا ؛ وإنَّ من جاوز الأربعين هو أولىٰ بهذه الرسالة ،** والتأكيد عليه أكثر ؛ لعلّه يستدرك ما فرَط منه .

وهل يُعفىٰ مَن دون **الأربعين** من مراد هذه الرسالة؟! ، فأقول : لا ؛ بل لِيُحسن استقبالها ، وليعمل علىٰ التهيؤ لقدومها ، حيث إن الغالب أن لا يتغير **ابن الأربعين** عمّا وصل إليه كما سيأتي ؛ فحريٌ بمن أيقن بذلك أن يُهيئ نفسه لها ولما بعدها ، بأحسن ما يريد أن يكون عليه من حالي الدنيا والآخرة ، والتي - غالباً - سيستمر ما بعدها من سنين علىٰ منوالها ، فإن كان السابق لها حَسَناً ، فسيزداد حُسناً بعد بلوغها ، وإن كان بعيداً عن الحسن ، فسيجد مشقة في الوصول إليه .

ولقد عدَّ رسول الله ﷺ استثمار الحياة كلِّها غنيمة ، ثم خصَّ الفترة التي تسبق الكهولة والهرم بالذكر ؛ فوصيته إذاً للشباب

أكثر من غيرهم؛ حيث قال لرجل وهو يعظه: «**اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك**»[١].

وكذلك فهم أصحابه رضي الله عنهم فهذا غنيم بن قيس يحكي حال أصحاب رسول الله ﷺ فيقول: كنا نتواعظ في أول الإسلام: ابن آدم اعمل في فراغك قبل شغلك، **وفي شبابك لكبرك**، وفي صحتك لمرضك، وفي دنياك لآخرتك، وفي حياتك لموتك[٢].

قال **المناوي**: وشبابك قبل هرمك، أي: اغتنم الطاعة حال قدرتك؛ قبل هجوم عجز الكبر عليك فتندم على ما فرطت في جنب الله[٣].

وكما قال **الحسن البصري** رحمه الله: والله لئن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمن؛ خيرٌ لك من أن تصحب أقواماً

(١) صحيح الجامع الصغير للألباني برقم ١٠٨٨ المكتب الإسلامي بيروت، فتح الباري لابن حجر ١١/ ٢٣٥ دار المعرفة بيروت.
(٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٣٨٥ دار الباز مكة المكرمة، وفي حلية الأولياء للأصبهاني ٣/ ٩٧ دار الكتاب بيروت. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٥/ ٣٣٨ دار الكتب العلمية بيروت.
(٣) فيض القدير للمناوي ٢/ ١٦ دار المعرفة، بيروت.

يؤمِّنونك حتىٰ يدركك الخوف .[١]، فالأمر يهم **ابن الأربعين** ومن قبله كذلك .

وكما دعا **ابن الأزرق** إلىٰ : خدمة زمان الشيخوخة قبل مجيئه ؛ كما يخدم في الصيف زمان الشتاء قبل هجومه .[٢] .

والأصل هو تمام الأربعين ـ كما سيأتي ـ، ويُعفىٰ عن اليسير ويُتجاوز عن القليل ، فلا أهمية للكسور من العام ـ كالنصف مثلاً ـ، وحبّذا جبرها ـ احتياطاً ـ لمن لم تكتمل أربعونه .

والله المستعان ، وعليه التكلان ، والحمد لله أولاً وآخراً .

**علي بن سعيد بن دعجم**
**أبها ـ ص ب ٢٥٢٣**
**شوال ١٤٢٤هـ**

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٥٠ ، إحياء علوم الدين ٤/ ١٦٢ دار المعرفة بيروت .

(٢) بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق ٢/ ٨٦٧ الدار العربية للكتاب ليبيا ـ تونس .

## الأربعون... لماذا؟!

**الأربعون**: نقطة تحوّل لمن عزم على الرشد، ولمن أراد البر.

**الأربعون**: مفترق طرق، فإما عبور صراط الله المستقيم، وإما تردّد يورد سبيل الشيطان.

**الأربعون**: بداية لأوبة صادقة، .واعتراف - لا بدّ منه - بنعمة الله، وبالتقصير الجالب لطلب العفو والمغفرة، والانكسار بين يديه.

**الأربعـون**: بداية لمرحلة جديدة، **مـرحلة نضج في جـمـيع فروعه**، ومنطلق لوضع أكمل:

* من جـهـة: النّظر فيـمـا مضى، ومـا يجب لـه من توبة واستغفار وندم.

* ومن جهة: حاضره، وما يستقبل من أموره، وتأمّلها، وما ينبغي لها من العزم الصادق على أن يختم بخير؛ فيهيئ نفسه لذلك، ويسأل الله العون عليه.

وهي مـرحلة **قـوة الذهن والتـفكيـر**؛ لا: **قـوة البـدن**، أو المطلوب من العضلات.

ووقت الاستفادة القصوىٰ من ذلك التراكم الكبير من التجارب والخبرات، والمشورة والرأي، بالأسلوب الأمثل، وفي الزمان المناسب، والمكان المناسب.

وإن كان الأصل - إذا عُلم أن لله مقالاً في أمر ما - أن لا نسأل: لماذا **الأربعون**؟

وذلك لأن الله تعالىٰ قد خص **الأربعين** بالذكر في كتابه الكريم، وهذا يكفي لتأمّل هذا التخصيص، فهو الذي خلق سبحانه، ويعلم أحوال خلقه وأطواره ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤]. فهو (اللطيف: أي العالم بدقائق الأشياء، الخبير: أي العالم بحقائق الأشياء)(١).

(إن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه، والصانع يعلم مصنوعه، . . ، فاللطيف: الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتىٰ عجزت عنه الأفهام، والخبير الذي انتهىٰ علمه إلىٰ الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها؛ كما أحاط بظواهرها)(٢).

ومع ذلك أسوق لك بعضاً من كلام رسوله الله ﷺ، والسلف الصالح - رحمهم الله - عن **الأربعين**؛ إذ إنّ:

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ٢٧٦ .

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم ٢/ ٤٩١ دار العاصمة الرياض.

الدين ما قال الرسول وصحبه
والتابعون ومَن مناهجهم قفا

وابن الأربعين يكون قد (**تناهى عقله، وكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنّه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين**)[١].

وزاد **الثعالبي** (وإنَّما ذكر الله تعالى الأربعين؛ لأنها حَدٌّ للإنسان في فلاحه ونجابته).

قال **إبراهيم النخعي**: كانوا يقولون إذا بلغ الرجل **أربعين** سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت[٢].

وكمال العقل إنما يكون عند مقاربة **الأربعين**[٣].

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] والأشدّ جمع شدّ، **وأنه تناهي قوّته واستوائه**.

و ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ذلك حين **تكاملت حجة الله عليه، وسيَّر عنه جهالة شبابه**، وعرف الواجب لله من الحقّ في برّ والديه[٤].

لأنه في **الأربعين** (يتناهى عقل الإنسان وفهمه، وما قبل

---

(١) تفسير الثعالبي ٤/ ١٥١ دار الأعلمي للمطبوعات بيروت، تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤١ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد دار صادر بيروت ٦/ ٢٧٧ .

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي ٤ ص٩ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ١١٤ .

ذلك وما بعده منتقَص عن كماله في حال **الأربعين**)[١].

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ: الاستواء ما بين الثلاثين و**الأربعين**، **فإذا زاد علىٰ الأربعين أخذ في النقصان**[٢].

والأمر كذلك حقاً، وذلك (لأن مقدمات الضعف ونقص القوىٰ تبدو بعد **الأربعين**)[٣].

فكأن **الأربعين** أشبه بقمة جبل من: المعرفة والعلوم والخبرات والقدرات، يسعىٰ الإنسان إلىٰ بلوغها، فما يسبقها، وما يتلوها أقل منها شأناً وعلوّا.

والغالب علىٰ الإنسان **بعد الأربعين** أن التغيرات لديه قليلة؛ سواء الجسمية، أو الذهنية، أو النفسية، وما يكون بعد ذلك من تغيرات محدودة فهو معتمد علىٰ ما قبلها.

(وذكر غير واحد: أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوىٰ جداً خَلْقُه الذي هو عليه؛ فلا يكاد يزايله بعد)[٤].

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤٢.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٢٢ للسيوطي نشر محمد دمج بيروت، فتح القدير للشوكاني ٤/ ٢٠٦ طبعة دار الفكر.

(٣) فيض القدير ٥/ ٥٢٤.

(٤) تفسير الألوسي ٢٥ ص ١٨ دار إحياء التراث بيروت.

قال **ابن القيم** ( . . . فبلوغ الأشُدّ مرتبة بين البلوغ وبين **الأربعين**، ومعنى اللفظة من الشدة، وهي القوة والجلادة، والشديد: الرجل القوي، فالأشد القويّ، . . . ، **ثم بعد الأربعين يأخذ في النقصان وضعف القوى على التدريج**، كما أخذ في زيادتها على التدريج، قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً**﴾ [الروم: ٥٤]، فقوته بين ضعفين، وحياته بين موتين، فهو أولاً نطفة، ثم علقة، إلى أن قال: **فإذا اجتمعت لحيته فهو شاب إلى الأربعين، ثم يأخذ في الكهولة إلى الستين**، ثم يأخذ في الشيخوخة . . . )[١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ**﴾ [الانشقاق: ١٩]: حالاً بعد حال، وقيل المراد اختلاف أحوال المولود منذ يكون جنيناً إلى أن يصير إلى أقصى العمر، . . . ، **فإذا بلغ أربعين كهل**، فإذا بلغ خمسين شيخ، . . . الخ)[٢].

(وبلوغ الأشد: أن يكتهل ويستوفي السنّ التي **تستحكم**

---

(١) تحفة المولود لابن القيم ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧ دار الكتاب العربي بيروت.

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٩٨ .

**فيها قوته وعقله**، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين، وعن قتادة: ثلاث وثلاثون سنة، ووجهه أن يكون ذلك أول الأشد، **وغايته الأربعون**)[١].

وعند كثير من أهل الحديث (ليس بمنكر أن يحدث عند استيفاء **الأربعين؛ لأنها حد الاستواء ومنتهى الكمال، وعندها ينتهي عزم الإنسان وقوته، ويتوفر عقله ويجود رأيه**)[٢].

(وليس بعد **الأربعين** من مَصِيفٍ للذة ولا مَرْبَع، وهي نهاية القوة الصالحة من الطبائع الأربع، فإذا تجاوزها المرء أشفت ثمار عمره على خرصها، وصارت زيادته كزيادة التصغير؛ التي هي زيادة تدل على نقصها)[٣].

فالعاقل في هذا السن ـ بالذات ـ ينقلب تلذذه بالمحسوسات والمتع الفانية، إلى تلذذ بزيادة الذكر، والخلوة، وعموم الطاعات، والقُربات، كما كان حال سلفنا الصالح رحمهم

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ١٣٤ .

(٢) تدريب الراوي للسيوطي ٢/ ١٢٨، مكتبة الرياض الحديثة، المحدث الفاصل للرامهرمزي ١/ ٣٥١ دار الفكر بيروت.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/ ١٧١، لابن الأثير، دار الرفاعي الرياض ط ٢ .

الله، مما سيأتي ذكر بعضه قريباً.

وهذا أمر محسوم عندهم فقد (تبين في المعقول والمنقول: **أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها**، وأنه إذا بلغ سنَّ **الأربعين** وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة، **ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط**)[١].

(قال **أهل المعرفة**: إن المخاطب بأحاديث الحجامة غير الشيوخ؛ لقلة الحرارة في أبدانهم. وقد أخرج الطبري بسند صحيح عن **ابن سيرين** قال: **إذا بلغ الرجل أربعين سنة لم يحتجم**.

قال **الطبري**: **وذلك لأنه يصير من حينئذ في انتقاص من عمره، وانحلال من قوة جسده**، فلا ينبغي أن يزيده وهناً بإخراج الدم، وهو محمول على من لم تتعين حاجته إليه، وعلى من لم يَعْتَدْهُ، أي لا حتجامه ﷺ في أواخر عمره لأنه اعتاده واحتاج إليه)[٢].

وذهب بعض أهل العلم (كابن خَلاَّد وغيره إلى أنه: ينبغي للشيخ أن لا يتصدَّىٰ للحديث إلا بعد استكمال خمسين سنة. وقال غيره: **أربعين** سنة، وقد أنكر القاضي عياض ذلك، بأن أقواماً حدَّثوا قبل **الأربعين**، بل قبل الثلاثين، منهم: مالك بن

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١/ ٤٦٥ طبعة دار الفكر.

(٢) فتح الباري ١٠/ ١٥١، نيل الأوطار ٨/ ٢١٠.

أنس، ازدحم الناس عليه وكثير من مشايخه أحياء. . .، واختلف في السن الذي يُتصدىٰ فيه لإسماعه ـ أي الحديث ـ والانتصاب لروايته، والذي نقوله: إنه متىٰ احتيج إلىٰ ما عنده جلس له في أي سن كان)[١].

وذهب بعضهم إلىٰ التفصيل، فقالوا: وسمعت بعض شيوخ العلم يقول الرواية من العشرين والدراية من **الأربعين**[٢].

وأمر الاهتمام **بالأربعين** ليس مقصوراً علىٰ المسلمين، بل إنه موجود عند الأمم الأخرىٰ كذلك، فقد أدركوا بتجاربهم شأن **الأربعين**، فمن ذلك:

١ـ أن قريشاً في جاهليتها لا تُدخل دار الندوة أحداً للمشورة حتىٰ يبلغ أربعين سنة، إلا حكيم بن حزام فإنه دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة، وذلك لعقله وفطنته[٣].

٢ـ وقد ذكر من أخبار الصِّين قبيلة، كان لهم ملك مطاع لا يجلس بين يديه أحد منهم إلا إذا جاوز أربعين سنة[٤].

---

(١) تدريب الراوي للسيوطي ٢/ ١٢٨ .

(٢) المحدث الفاصل للرامهرمزي ١/ ١٨٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ٥٠ مؤسسة الرسالة بيروت.

(٤) معجم البلدان لياقوت الحموي ٣/ ٤٣٣ دار صادر بيروت.

وذكر **ابن النديم** قريباً من هذا عن أهل الصين، فقال: ولا يولي الملك عاملاً ولا أميراً إلا وله أربعون سنة، لا أقل من ذلك، والعدل بها أكثر[١].

وإن المتأمل في الفترة بين **الأربعين** وبداية سن التكليف والبلوغ، ومقارنتها بالفترة بين **الأربعين** ونهاية العمر الطبيعي الذي جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ: **«أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»**[٢]، يجد نوعاً من التقارب بين المدّتين؛ حتى إنها لتكاد تتساوى؛ وتبرز **الأربعون** في المنتصف بين الفترتين، والله أعلم.

إذاً: **الأربعون** خُصّت بالذكر والعناية لأسباب سبق ذكر بعضها، ولغيرها أيضاً لكن منها:

١ـ إنه قد تناهى عقل صاحبها، وكمل فهمه وحلمه.

٢ـ إن ابن **الأربعين** لا يتغير غالباً عما يكون عليه.

٣ـ إنَّها حد للإنسان في فلاحه ونجابته.

٤ـ إن حجة الله عليه تكون قد تكاملت عندها.

---

(١) الفهرست لابن النديم ١/ ٤٩٢ دار المعرفة بيروت.

(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ١٠٨٤.

٥ـ إن ابن **الأربعين** ـ حين ذلك ـ يكون الله تعالىٰ قد سيَّر عنه جهالة شبابه .

٦ـ إنه ببلوغها يكون قد عرف الواجب لله من الحق في برّ والديه .

٧ـ إن ما قبلها وما بعدها منتقص عنه ، فإذا زاد على **الأربعين** أخذ في النقصان وضعف القوىٰ علىٰ التدريج .

٨ ـ إنها الغاية في تزايد قواه ونموها ، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط .

## الأربعون في القرآن الكريم والسنة الشريفة

جـاء ذكـر **الأربعين سنة** في القـرآن الكريم، وفي السنة الشريفة، وفهم منهما سلفنا الصالح فهماً أكمل، فكانت خير أعمالهم، وخير أيامهم في تلك المرحلة العمْرية.

قال الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

قيل: نزلت في أبي بكر، وقيل نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، وقال الحسن: هي مرسلة نزلت على العموم، والله أعلم[١].

وقول الحسن أظهر، فإن: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقال تعالىٰ عن موسىٰ ﷺ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٩٤.

حُكْمًا وعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقد ذهب كثير من سلفنا الصالح رحمهم الله في فهم الآيات السابقة، وأمثالها مذاهب عدّة، أهمها ما يلي:

**أولاً:** أن بلوغ الأشد هو ببلوغ **الأربعين**.

**ثانياً:** أن الإستواء يكون ببلوغ **الأربعين**.

**ثالثاً:** آخرون فهموا أن العمر الذي يتذكر فيه من تذكر هو **الأربعون**.

تفصيلها كما يلي:

**أولاً:** في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد، قال الحسن عن الأشُدّ: هو بلوغ **الأربعين**، وقيام الحجة عليه(١).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ مبلغه الذي لا يزيد عليه نشؤه؛ وذلك من ثلاثين إلى **أربعين** سنة، فإن العقل يكمل حينئذ(٢).

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ إذا اكتهل واستحكم قوته وعقله(٣).

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٦٧ .

(٢) تفسير البيضاوي ٥١٢ .

(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٢٧ .

فمعنى ﴿وبلغ أربعين سنة﴾ أي تمامها، وهو أكثر الأشدّ[١].

**وانتصر له القرطبي فقال: ولهذا القول أيضاً وجه؛ وهو الصحيح**؛ والحجة له قوله تعالى: ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾ **ففي الأربعين تناهي العقل، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عنه**، والله أعلم[٢].

**ثانياً:** عن قوله تعالى: ﴿واستوى﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما (**أربعين سنة. والاستواء ما بين الثلاثين والأربعين، فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان**)[٣].

وأخرج **الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن حاتم** عن **مجاهد** في قوله ﴿واستوى﴾ قال: أربعين سنة، وكذلك قال **قتادة**[٤].

وبه قال **شيخ المفسرين**، فقال عند قوله تعالى: ﴿واستوى﴾: **بلغ أربعين سنة**[٥].

**ثالثاً:** المراد بالتعمير في الآية على أقوال: أحدها أنه **أربعون**

---

(١) تفسير الجلالين ص ٦٦٧.

(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٠٧.

(٣) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٣١.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٢٢.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤١.

سنة، نقله الطبري عن مسروق وغيره، وكأنه أخذه من قوله ﴿بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾[١].

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ [فاطر: ٣٧] أنها: **الأربعون**[٢].

وعن **مجاهد**، قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ [فاطر: ٣٧]: **أربعون** سنة، ومروي كذلك عن الحسن[٣].

ومعنى أعذر (أعذر الله) الإعذار: إزالة العذر، والمعنى: أنه لم يبق له اعتذار؛ كأن يقول لو مُدَّ لي في الأجل لفعلت ما أُمرتُ به[٤].

أو من (الإعذار): وهو تقديم العذر بعد العذر فالأول بالنبي ﷺ، **والثاني بالشيب؛ وذلك عند كمال الأربعين**؛ قال الله تعالى: ﴿وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك﴾[٥].

**ولقد اختار الله تعالى لأكثر أنبيائه ورسله عليهم الصلاة**

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٣٩ .

(٢) تفسير النسفي ٣/ ٣٤٢ .

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤١، تفسير ابن كثير ٣/ ٨٨٨ .

(٤) فتح الباري ١١/ ٢٤٠ .

(٥) تفسير القرطبي ٧/ ٢٧٦ .

والسـلام تمام الأربعين عند بعثـهم، وإن كـان يُستثنى من هذا التعميم بعضهم كما سيأتي.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨]، فإنّ (الخيرة لله، وهو أعلم بوجوه الحكمة في أفعاله)[١].

وهو ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦]، فإن ما أراد الله (فعله فلا معقب لحكمه ولا يُسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله)[٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، أي: إنّا خلقنا كل شيء مقدراً مرتباً على مقتضى الحكمة[٣].

قال الشوكاني: قال المفسرون: لم يبعث الله نبياً إلا بعد أربعين سنة[٤].

ومحمد ﷺ (بعثه الله على رأس أربعين وهي سنّ الكمال، قيل ولها تبعث الرسل، وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة فهذا لا يعرف له أثر متصل

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ٢٤٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٧٨٢.
(٣) تفسير البيضاوي ٦١٣.
(٤) فتح القدير ٥ ص١٨.

يجب المصير إليه)[١].

وصرح جمع بأن الأعم الأغلب كون البعثة على رأس **الأربعين** كما وقع لنبينا ﷺ[٢].

وعند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠]، **قال عبدالرحمن بن كيسان: على رأس أربعين سنة، وهو القدر الذي يوحىٰ فيه إلى الأنبياء، وهذا معنى قول أكثر المفسرين.**

أي على الموعد الذي وعده الله وقدّره أنه يوحىٰ إليه بالرسالة، وهو **أربعون** سنة[٣].

قال **النووي**: وهذا الذي ذكرناه أنه بعث على رأس **أربعين** سنة هو الصواب المشهور الذي أطبق عليه العلماء[٤].

فإن الله إنما نبأه على رأس **أربعين** من عمره[٥].

قال ابن حجر: واختلف النقلة في قدر الأشد الذي بلغه يوسف ﷺ فالأكثر أنه الحلم، وقيل غيره، وقيل الأكثر

(١) زاد المعاد لابن القيم ١/ ٨٤ مؤسسة الرسالة بيروت.
(٢) تفسير الألوسي ٢٦ ص ١٨-١٩.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ١٨٠، زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٢٨٦ المكتب الإسلامي بيروت، تفسير البغوي ٣/ ٢١٨، تفسير الألوسي ١٦/ ١٩٣، وغيرهم.
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/ ٩٩ دار إحياء التراث بيروت.
(٥) فتاوىٰ ابن تيمية ٨/ ٢٨٢ مكتبة ابن تيمية القاهرة.

**أربعون**، وقال ابن التين: **الأظهر أنه أربعون** لقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ **وكان النبي لا ينبأ حتىٰ يبلغ أربعين**، وتُعُقِّبَ بأن عيسىٰ ﷺ نُبِّئَ لدون أربعين ويحيىٰ كذلك لقوله تعالىٰ: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢] وسليمان ﷺ لقوله تعالىٰ: ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ** ﴾ [الأنبياء: ٧٩] إلىٰ غير ذلك[١].

وقال في موطن آخر: فعلىٰ هذا يكون له حين بعث **أربعون** سنة ونصف أو تسع وثلاثون ونصف، فمن قال **أربعين** ألغىٰ الكسر أو جبر، لكن قال **المسعودي وابن عبدالبر**: إنه بعث في شهر ربيع الأول، فعلىٰ هذا يكون له **أربعون** سنة سواء، وقال بعضهم: بعث وله **أربعون** سنة وعشرة أيام[٢].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بُعث رسول الله ﷺ وأنزل عليه القرآن، وهو ابن **أربعين** سنة[٣].

و(بعثه الله علىٰ رأس **أربعين** سنة) أي آخرها[٤].

و(حد **الأربعين** الذي يوحي الله فيه إلىٰ عباده النبيين عليهم

(١) فتح الباري ٨/ ٣٥٨.

(٢) فتح الباري ٦/ ٥٧٠.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ١٣٣ مكتبة المعارف بيروت.

(٤) شرح الزرقاني لموطأ الإمام مالك ٥/ ٢٨٦ مكتبة الحلبي مصر.

الصلاة والسلام من رب العالمين)[١] .

**إذاً فالأربعون لها شأن خاص، فهي ليست سنة عادية، بل لها نوع تميز وخصوصية.**

(وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي رجلاً صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً، وكان يقول: **أكمل ما يكون الإنسان عقلاً وذهناً إذا بلغ أربعين سنة**، وهي السن التي بعث الله تعالىٰ فيها محمداً ﷺ، . . . ، وأصفىٰ ما يكون ذهن الإنسان في وقت السحر)[٢] .

جاء في سيرة الحافظ جلال الدين السيوطي أنه (لما بلغ أربعين سنة أخذ في التجرد للعبادة، والانقطاع إلىٰ الله تعالىٰ والاشتغال به، والإعراض عن الدنيا وأهلها، كأنه لم يعرف أحداً منهم، وشرع في تحرير مؤلفاته . . . )[٣] .

(١) البداية والنهاية ١/ ٢٣٤ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٢٤٥ دار الثقافة بيروت.

(٣) شذرات الذهب ٨/ ٥١ .

## الأربعون... والشيب

وللشيب مع **الأربعين** صحبة، وربما سبق الأربعين، أو زاملها، وقليلاً ما يفترقان تأخراً، وهذا أمر مشاهد ملحوظ، ولكن لا بدّ من أقوال أهل العلم في هذا الأمر.

**قال القرطبي**: ويأتي الشيب عند كمال **الأربعين**[١].

**وقال المناوي**: من ناهز **الأربعين** وخطه الشيب[٢].

**وقال القرطبي**: الشيب يأتي في سنّ الاكتهال، فهو علامة لمفارقة سنّ الصِّبا[٣].

وقال: وجعل الستين غاية الإعذار، لأن الستين قريب من معترك المنايا، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله، وترقب المنية ولقاء الله، ففيه إعذار بعد إعذار، الأول بالنبي ﷺ، **والثاني بالشيب، وذلك ثم كمال الأربعين**[٤].

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٢٧٦.

(٢) فيض القدير ١/ ٨٩.

(٣) تفسير القرطبي ٧/ ٢٧٦.

(٤) تفسير القرطبي ٧/ ٢٧٦، ١٤/ ٣٥٣.

ولقد لَخّص هذا الشاعر أثر كل شيبة تظهر على العقلاء من الناس، فقال:

**لقــد جلَّ خطب الشــيب إن كــان كلمــا**
**بدت شــيــبــة يعــرىٰ من اللهــو مــركب**

**وللناس مع الشيب مذاهب:**

فمنهم من رضي به واطمأن إليه، وعدّه نذيراً، واستعد لما بعده.

ومنهم من لم يأبه به، ولم يمثل له أي شيء، أو يعني له أي معنىٰ، وما كأنه نزل بساحته.

وصنْف آخر التفوا عليه، واحتالوا، وسارعوا إلىٰ إخفائه؛ بنتفه، أو صبغه بالسواد، أو تغيير لونه الحقيقي؛ ضجراً به، وكرها له، أو تشاؤماً منه، خصوصاً أنه إذا حلّ تتابع.

والمرء وإن أخفاه بطريقة أو أخرىٰ؛ فإن الواقع والحقيقة لا يمكن إخفاؤهما.

واستمع إلىٰ هذا الحوار بين شاعر وزائرته:

**وزائرة للشــــيب لاحت بمفـــــرقي**
**فبادرتها خوفاً من الحتف بالنَّتف**
**فقالت علىٰ ضعفي استطلت ووحدتي**
**رويدك حتىٰ يلحق الجيش من خلفي**

وعدّه كثير من أهل العلم: النذير الذي في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] أي: الشيب[١].

قال ابن حجر (وقد اختلف أهل التفسير فيه، فالأكثر علىٰ أن المراد به الشيب، لأنه يأتي في سن الكهولة فما بعدها، وهو علامة لمفارقة سن الصِّبا؛ الذي هو مظنة اللهو)[٢].

والمسلم العاقل وخصوصاً الذي جاوز **الأربعين** له مع الشيب حال آخر، سواء كان قليلاً أو كثيراً، فهو كما قال الألبيري:

**ولا يَهُن القليل عليك منها**
**فما في الشيب ويحك من قليل**

أما **البستي** رحمه الله فقد قطع الطريق علىٰ حيل النفوس والأعذار خصوصاً في هذا السن؛ فقال:

**ويا أخا الشيب لو ناصحت نفسك لم**
**يكن لمثلك في الإسراف إمعان**
**هَب الشبيبة تُبدي عذر صاحبها**
**ما عذر أشيب يستهويه شيطان**

وهذا شاعر قد صدق في وصف أثر الشيب علىٰ المسلم،

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٠٧.

(٢) فتح الباري ١١/ ٢٣٩.

فقال (بتصرف يسير):

علقت يا كـــعب بعـــد الشـــيب فـــانيـــة

والشـــيب فـــيـــه عن الأهـــواء مـــزدجـــر

فإن لم يكن الشيب زاجراً عن الأهواء، فلم يكن حينئذ نذيراً.

وإن كـــان هـذا هو أثر الشـــيب، وهذه حكمـــة من حكم ظهوره؛ فإنه ليس لوجوده أو كثرته دلالة معينة، كأن يكون لزيادة فضل أو علم أو ذكاء، لعدم وجود الدليل على ذلك؛ بل ربما يأتي دون الثلاثين أحياناً، أو لسبب عضوي، أو وراثي، أو نفسي، أو لأسباب أخرى، وهو يأتي الأبرار والفجار، والعلماء والعامة، ويأتي الأذكياء ومن دونهم، بلا تمايز.

قال ابن حجر (وأما بياض الشعر فيختلف باختلاف الأمزجة)[1].

فهذا الذهبي يقول عن أبي شامة الفقيه الشافعي المعروف شهاب الدين المقدسي: وذكر أنه حصل له الشيب وهو ابن خمس وعشرين سنة[2].

وهذا أحمد بن علي بن شيخ الإسلام السبكي، الذي تميز

---

(١) فتح الباري ٩/ ١٠٨.

(٢) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ١٣٤ دار صادر بيروت.

ودرَّس وأفتى وساد صغيراً ورأس على إقرانه، وأسرع به الشيب فأنقى في حدود الأربعين[١].

يقول الخطيب البغدادي عن محمد بن الحسن، وأبي يعلى المعروف بابن الكرجي: كان صاحباً لنا، توفي وأحسبه لم يبلغ سِنُّه الأربعين، وكان الشيب كثيراً في لحيته[٢].

وذكر العقاد شعراً له في الشيب الذي جاءه مبكراً؛ في السادسة والعشرين كما يقول[٣]:

**دون الثلاثين تعروني وما انصرمت**
**إلا كما تنقضي الأعوام في الحلم**
**قل لابن تسعين لا تحزن فذا رجل**
**دون الثلاثين قد ساواك في الهرم**
**وليس ما يخدع الفتيان يخدعني**
**كلا، ولا شيم الفتيان من شيمي**

**ولسرعة انتشار الشيب أسباب، منها:**

١ـ ما وضّحه عبدالملك بن مروان في ردّه لما قيل له: أسرع

---

(١) طبقات الشافعية ٣/ ٧٨ـ٧٩ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٢١٧ دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) من كتاب (أنا) للعقاد ١٢٢ـ١٢٣ .

إليك الشيب، فقال: وكيف لا؛ وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين؟

وفي موقف آخر قال: وتنسى ارتقاء المنبر، ومخافة اللحن؟![١].

وكذلك قرَّره معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قبله، حيث كان يخشى اللحن والخطأ في الكلام[٢].

٢ـ وكذلك (الفزع يورث الشيب، وذلك أن الفزع يذهل النفس)[٣].

قال **المناوي**: والفزع يورث الشيب قبل أوانه[٤].

وهذا القاضي الفاضل يتحدث عن بلاء السلطان صلاح الدين الأيوبي في الحروب، ويشجعه على الجهاد في سبيل الله، وأنها من فضل الله عليه، فيذكر في جملة كلامه أحد أسباب كثرة الشيب، فيقول (يا مولانا هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٦٤ .

(٢) البداية والنهاية ٨/ ١٤٠ .

(٣) تفسير القرطبي ٩ ص١ .

(٤) فيض القدير ٤/ ١٦٨ .

التي ينادىٰ فيها يا خيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس . . وأنها من نعم الله عليك)[١] .

ولقد قال أبو المظفر الأبيوردي شعراً بليغاً في الحض علىٰ الجهاد فليراجع هنالك، منه بيت يبين علاقة الشيب بالحرب[٢] :

**وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة**

**تظل لها الولدان شيبَ القوادم**

وذلك ـ والله أعلم ـ لما يجده المجاهد في سبيل الله؛ من كرب وشدة، وقد صحَّ عند النسائي وغيره، أن رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال ﷺ: **«كفىٰ ببارقة السيوف علىٰ رأسه فتنة»**[٣] .

(قال الراغب: فلا يفتن في قبره، ولا يُسْأل؛ إذ لو كان فيه نفاق لفرَّ عند التقاء الجمعين، فلما ربط نفسه لله في سبيله ظهر صدق ما في ضميره)[٤] والله أعلم.

٣ـ وكذلك يزداد الشيب مع (الهموم والأحزان، فهي إذا

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ٢/ ١٦٩ دار الجبل بيروت.

(٢) البداية والنهاية ١٢/ ١٥٦ .

(٣) تفسير القرطبي ٤/ ٢١٨، والحديث في صحيح الجامع برقم ٤٣٥٩ .

(٤) فيض القدير، وقد أشار إلىٰ صحة الحديث، ٥/ ص ٤ .

تفاقمت على الإنسان أسرع إليه الشيب، قال المتنبي:

**والهم يختـرم الجسـيم مـخـافـة**

**ويشـيب نـاصـيـة الصـبي ويهـرم**[١]

قال **الغزالي**: الشيب يحصل من الحزن والخوف[٢].

٤ـ وربما كان السبب: عدم الاستقرار النفسي والأسري، أو كما يقول علماء النفس: عدم التوافق العاطفي، وذلك من شركاء الحياة من أبناء، أو زوجة، أو جيران، أو غيرهم بعض هذه العوامل، أو كلها أحياناً.

قال الإمام المحدث الثقة **سعيد المقبري**[٣]: كان داود النبي ﷺ يدعو: اللهم إني أعوذ بك من مالٍ يكون عليّ وبالاً، ومن ولدٍ يكون عليّ رياءً، وزوجةٍ تشيبني قبل المشيب، وجارِ سوء يراني وقلبه يرعاني، إن رأى حسنة كتمها، وإن رأى سيئة أذاعها.

وإن كان يرفعه الواسطي إلى النبي ﷺ، وفي رفعه نظر، إذ يقول: إن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) فيض القدير ٤/ ١٦٨.

(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٩٧.

(٣) كما ذكر عنه الذهبي في السير ٥/ ٢١٦، وحديثه مخرج في الصحيحين.

**«كان من دعاء أخي داود: اللهم إني أعوذ بك من مال يكون عليَّ فتنة، ومن ولد يكون علي وباء، ومن حليلة تقرب الشيب قبل المشيب»**(١).

وفي وصية لقمان لابنه: يا بني اتق المرأة السوء فإنها تشيبك قبل الشيب(٢).

وقد صاغ ابن الأعرابي سبب مشيبه قبل أقرانه شعراً: عن زوجته سيئة الخلق، سريعة الغضب(٣):

**قد شبت قبل الشيب من لداتي**
**وذاك مــــا ألحق من الأذاة**
**من زوجة كثيرة السنْبات**

٥ـ وربما كانت كثرة الشيب من كثرة التَّطّيب، ولقد (سُئل أنس رضي الله عنه: أخَضَبَ النبي ﷺ؟، فقال: لم يبلغ من الشيب إلا قليلاً.

وفي رواية ثانية: لم يبلغ ما يخضب. **وذلك أن العادة أن القليل من الشعر الأبيض إذا بد في اللحية لم يُبَادر إلى خضبه حتى يكثر، وجاء في باب صفة النبي ﷺ: أن أنساً رضي الله عنه جزم**

---

(١) تاريخ واسط ١/ ١٣٠ ط١، عالم الكتب، بيروت.

(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ٤٥.

(٣) لسان العرب ١/ ٤٧٥، دار صادر بيروت.

**بأنه إنما احمرَّ من الطيب)**[١] .

قال النووي: ولأنه ﷺ كان يستعمل الطيب كثيراً وهو يزيل سواد الشعر، فأشار أنس إلىٰ أن تغيير ذلك ليس بصبغ، وإنما هو لضعف لون سواده بسبب الطيب[٢] .

وقالت طائفة: كان رسول الله ﷺ مما يكثر الطيب قد احمرّ شعره، فكان يظن مخضوباً ولم يخضب[٣] .

**ولهذه الأسباب، ولغيرها تزداد سرعة انتشار الشيب، والله أعلم .**

وعن حال بعض الناس مع اللحية ذكر النووي كلاماً جميلاً منه: وقد ذكر العلماء في حال بعض الناس مع اللحية **عشر خصال مكروهة** ذكرمنها: الثالثة: تبييضها بالكبريت أو غيره استعجالاً للشيخوخة؛ لأجل الرياسة والتعظيم، وإيهام أنه من المشايخ، . . . إلىٰ أن قال: العاشرة: النظر إلىٰ سوادها وبياضها إعجاباً وخيلاء، وغِرَّةً بالشباب، وفخراً بالمشيب، وتطاولاً علىٰ الشباب[٤] .

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٣٥٢ .

(٢) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم ١٥/ ٩٥ .

(٣) زاد المعاد ١/ ١٧٦ .

(٤) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم ٣/ ١٤٩ .

أمّا رسول الله ﷺ فقد شيبته أخبار اليوم الآخِر، شيبته القيامة وأهوالها، فَلَكَأنَّه يراها رأي العين.

جاء في أحاديث عنه ﷺ أن أصحابه قالوا له: قد أسرع إليك الشيب، فقال: **«شيبتني هود وأخواتها»** وفي حديث آخر: **«قبل المشيب»**(١).

قال القاري: أي ظهر عليك آثار الضعف قبل أوان الكبر، وليس المراد منه ظهور كثرة الشعر الأبيض عليه؛ لما روىٰ الترمذي عن أنس قال ما عددت في رأس رسول الله ﷺ ولحيته إلا أربع عشرة شعرة بيضاء(٢).

ولقد بوّب مسلم في صحيحه علىٰ حكم الصبغ والخضاب أبواباً، وساق أحاديث، منها:

**باب استحباب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة وتحريمه بالسواد:**

عن جابر قال: أتي بأبي قحافة يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة بياضاً، فقال رسول الله ﷺ: **«غيروا هذا بشيء، واجتنبوا السواد»**(الثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر).

---

(١) والأحاديث صحّحها الألباني في صحيح الجامع ٣٦١٤ـ٣٦١٧.

(٢) تحفة الأحوذي ٩/ ١٧٥ دار إحياء التراث بيروت.

**باب في مخالفة اليهود في الصبغ:**

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إن اليهود والنصارىٰ لا يصبغون فخالفوهم**».

قال **النووي**: ومذهبنا استحباب خضاب الشيب للرجل والمرأة بصفرة أو حمرة، ويحرم خضابه بالسواد علىٰ الأصح[١].

قال **ابن حجر** (قوله ﷺ: «**إن اليهود والنصارىٰ لا يصبغون فخالفوهم**»، يقتضي مشروعية الصبغ، والمراد به صبغ شيب اللحية والرأس، ولا يعارضه ما ورد من النهي عن إزالة الشيب، لأن الصبغ لا يقتضي الإزالة، ثم إن المأذون فيه مقيد لما أخرجه مسلم من حديث جابر أنه ﷺ قال: «**غيروه**»، ولأبي داود وصححه بن حبان من حديث ابن عباس مرفوعاً: يكون قوم في آخر الزمان يخضبون كحواصل الحمام لا يجدون ريح الجنة، وإسناده قوي إلا أنه اختلف في رفعه ووقفه، وعلىٰ تقدير ترجيح وقفه فمثله لا يقال فيه بالرأي، فحكمه الرفع، ولهذا اختار **النووي** أن الصبغ بالسواد يكره كراهية تحريم)[٢].

وللّجنة الدائمة للإفتاء برئاسة **الشيخ ابن باز** رحمه الله

---

(١) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم ١٤/ ٨٠ .

(٢) فتاوىٰ الباري ٦/ ٤٩٩ .

فتاوىٰ في صبغ شعر الرأس واللحية، ومنها إن: تغيير الشيب بصبغ شعر الرأس واللحية بالحناء والكَتَم ونحوهما جائز بل مستحب، وتغييره بالصبغ الأسود لا يجوز[١].

ويذكر أبو العتاهية دوراً من أدوار الشيب، فيعظ متصابياً قد بَلي:

**بَليتَ وما تَبْلَىٰ ثيابُ صباكا**
**كفاكَ نذير الشيب فيك كفاكا**
**ألم ترَ أنَّ الشيبَ قد قامَ ناعياً**
**مقامَ الشباب الغَضِّ ثم نعاكا**

جاء عند الإمام مالك أنّ رسول الله ﷺ قال: **«أول الناس رأىٰ الشيب إبراهيم ﷺ، فقال: يا رب ما هذا؟ فقال الله تبارك وتعالىٰ: هذا وقار يا إبراهيم (أي: حلْم ورزانة) فقال: رب زدني وقاراً»**(فالشيب ممدوح)[٢].

قال ﷺ: **«لاتنتفوا الشيب؛ فإنه نور الإسلام، ما من مسلم يشيب شيبة في الإسلام إلا كانت له نوراً يوم القيامة»**[٣].

---

(١) فتاوىٰ اللجنة الدائمة ٥/ ١٦٥ ـ ١٦٩ دار العاصمة الرياض.

(٢) ما بين القوسين من شرح الزرقاني ٥/ ٢٩٥ .

(٢) حديث صحيح برقم ٧٣٤٠ في صحيح الجامع.

وقال ﷺ: «**من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة**»[١]. (وزاد الحاكم في الكنى: «**ما لم يغيرها**»)[٢].

وقال ﷺ: «**الشيب نور المؤمن: لا يشيب رجل شيبة في الإسلام إلا كانت له بكل شيبة حسنة ورفع بها درجه**»[٣].

وشُبِّه الشيب بالقميص الذي يلبسه الواحد مكرهاً، فإنه إذا جاوز **الأربعين** (تقمص ثوباً من المشيب لا يجره خيلاء، ولا يزهى به حسناً، وإن **قيل**: إن أحسن الثياب البياض، **قيل**: إلا هذا الثوب؛ فإنه مستثنى، ومن الناس من يدلس لونه بصبغة الخضاب، وليس ذلك إلا حداداً على فقد الشباب، وهو في فعله هذا كاذب)[٤]، يقصد من يخضب بالسواد المنهي عنه كما تقدم.

وكان ﷺ يتمثل بهذا البيت:

**كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً**

أي زاجراً ورادعاً، وإنما كان يتمثل به **لأن الشيب نذير الموت، والموت يسن إكثار ذكره**؛ لتتنبه النفس من سنة الغفلة، فيسن لمن بلغ

---

(١) حديث صحيح برقم ٦١٨٣ في صحيح الجامع.

(٢) الزيادة من شرح الزرقاني ٥/ ٢٩٥.

(٣) حديث صحيح برقم ٣٦٤٢ في صحيح الجامع.

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/ ١٧٢، لابن الأثير.

سن الشيب أن يعاتب نفسه ويوبخها بإكثار التمثل بذلك(١).

وذكـر البـخـاري أن عـمـر رضـي الله عنه سـمع مـولى بني الحسحاس يقول الشعر فدعاه، فقال: كيف قلت؟ فقال:

**ودع سليــمى أن تجــهــزت غــاديا**

**كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا**

فقال: حسبك؛ صدقت.. صدقت(٢).

وصاغ آخر قريباً منه، فقال:

**أبى الشـيب والإســلام أن أتّبع الهــوى**

**وفي الشـيب والإسـلام للـمـرء وازع**

ولأبي إسحاق الألبيري:

**الشــيب نبَّــه ذا النُّهى فــتنبــهــا**

**ونَهى الجهولَ فما استفاق ولا انتهى**

**فــإلى مــتى ألهــو وأفــرح بالمنى**

**والشــيخُ أقــبح مــا يكون إذا لهــا**

**مــا حُــسنُه إلا التــقى لا أن يُرَى**

**صــبَّــاً بألحــاظ الجــآذر والمهــا**

---

(١) فيض القدير ٥/ ٢٠٣.

(٤) الأدب المفرد للبخاري ص ٥٤٦، المطبعة العصرية، مشروع زايد، الإمارات العربية المتحدة.

وهذا البحتري يشبه سواد الشعر - في مرحلة الشباب - بالغراب الأسود الذي طار لِتَوِّهِ:

**طار غـراب الشـبـاب مـرتحـلا**
**وحلّ شـيـب فـليس يـرتحـل**

ولماذا كل هذا الهروب من المشيب مع أنه خير للمسلم، وذكرىٰ وعظة؟

**إن المشـيـب رداء الحلـم والأدب**
**كـمـا الشـبـاب رداء اللهـو واللعب**

حتىٰ شعراء الجاهلية رأوا في الشيب حكما، فهذا النابغة يقول في بيت له:

**علىٰ حين عـاتَبْتُ المشـيب علىٰ الصبـا**
**وقلت: ألَمّـا أصْحُ، والشـيبُ وازعُ؟**

وهذا دريد بن الصمة يقول:

**صبا ما صبا حتىٰ علا الشيبُ مفرق رأسِهِ**
**فلمـا عـلاه قـال للبـاطل: ابعـد!**

وكان **أبو حازم** رحمه الله ينصح ابنه بأمور اقتنع بها، فأعلنها حِكَماً لابنه، وللأجيال من بعده، فيقول: يا بني لا تقتدي بمن لا يخاف الله بظهر الغيب، ولا يعف عن العيب،

ولا يصلح عند الشيب[١] .

وهذه الأبيات لشاعر عرف دور الشيب فأحسن الرَّوِيَّ :

رأيت الشـــــيب من نـذر المنايا
لصــاحبــه وحـسبك من نذير
وقــائلة تـخـضب يا حـبـيـبي
وسـوّد شـعـر شيـبك بالعـبيـر
فـقلت لهـا المشيب نذير عـمـري
ولست مــســوّداً وجـه النذير

أما هـذا الشاعر فكان دقيقاً في وصف حال بعض من نزل بهم الشيب ، وما ينبغي أن يكونوا عليه :

راعـــــه الـشـــــيب إذ نـزل
وكـــــفـــــاه من العــــذل
وانقـــضت مـــدة الصـــبـــا
فـــانقـــضى اللهـــو والعطل
قـــد لَعَـــمـــري دملتـــه
بخـــضـــاب فــمـــا اندمل

(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٣٠ .

فـابك للشـيب إذ بـدا
لا عـلى الـربـع والـطـلـل

وهذا شاعر متفائل، رضي بواقعه الذي لا مفرَّ منه، فرحب بضيف، وودّع آخر:

تولى الشـبـاب كـأن لم يكن
وحل المشـيب كـأن لم يزل
فـأهلا وسـهـلا بضـيف نزل
وأسـتـودع الله ضـيـفـاً رحل
فـأمـا المشـيب فـصـبح بدا
وأمـا الشـبـاب فَلَيلٌ أفل
سـقى الله ذاك وهذا مـعـا
فنعم الُمـولّي ونعم البـدل

بل ذهب هذا الشاعر إلى حدٍّ تمني الشيب مبكراً، لفوائد عاينها، ولا يخلو الشيب من فوائد:

تمنيت أن الشـيب عـاجل لمتي
وقـرب مني في صـبـاي مـزاره
لآخـذ من عـصـر الشـبـاب نشـاطه
وآخـذ من عـصـر المشـيب وقـاره

أنشد أبو عمر هلال بن العلاء:

**يا خــاضب الشـيب بالحناء تسـتـره**
**سل المليك له ســتــرا من النار**
**لن يرحل الشــيب عن دار أقــام بهــا**
**حتىٰ يرحل عنهـا صـاحب الدار**

وحكىٰ ابن المنجم حــال بعض من يخــضب الشــيب بالسواد، ولكن سرعان ما تبدو أصوله، فقال:

**ومـا خَضَبَ الناسُ البيـاضَ لقبحـه**
**وأقـــبح منه حين يظهــــر ناصله**
**ولكنه مــات الشــبــاب فــســودت**
**علىٰ الرسم من حــزن عليــه منازله**

أمّـا أبو محـمـد رزق الله بن عـبدالوهاب التـمـيـمي نزيل بغداد؛ فَلَهُ في هذا السياق قصيدة جميلة:

**ومـــا شنآن الشــــيب من أجل لونه**
**ولكنَّـه حــــاد إلىٰ البين مــــســـرع**
**إذا مـــا بدت منه الطليـــعـــة آذنت**
**بأن المـنايا خلفــــهــــا تتطلع**

فإن قصها المقراض صاحت بأختها
فــتظهـــر يتلوها ثلاث وأربع
وإن خُـضِبتْ حـالَ الخـضـابُ لأنه
يغــــالب صنع الله والله أصنع
فـيـضـحي كـريش الديك فـيـه تلمع
وأفظع مـــا تكســـاه ثوب ملمع
إذا مـــا بلغت الأربعين فـــقل لمن
يودك فـيـمـا تشـتـهـيـه ويسـرع
هلمـــوا لنبكِ قـــبل فـــرقـــه بيننا
فـمـا بعـدها عيش لذيذ ومـجـمع
وخلِّ التـــصــــابي والخـــلاعـــة والهـــوىٰ
وأُمَّ طريق الحق فـــــالحق أنفع
وخــــــذ جنة تنجي وزادا من التـــــقىٰ
وصـحـبـة مـأموم فـقـصـدك مـفـزع

وللأنصاري :

والشـــيـب يأمـــر بالعـــفـــاف وبالتـــقىٰ
وإليـــه يأوي العـــقل حين يؤول
فــإن استطعت فــخــذ لشـيـبك فـضلة
إن العــقــول يرىٰ لهــا تفــضــيل

## الأربعون عند العلماء

ومن ناهز **الأربعين** يعتبر شيخاً، أو كهلاً، عند أهل اللغة، وطائفة من علماء الشريعة(١).

وهي سنّ اكتمال الشباب وغايته، وما بعدها كهولة وشيخوخة.

وهذا أبو عمر الشيباني سعد بن إياس يقول تكامل شبابي يوم القادسية فكنت ابن **أربعين**(٢).

قال **ابن حجر** (ذكر الزمخشري في الشباب: أنه من لَدُن البلوغ إلىٰ اثنتين وثلاثين.

وقال **ابن شاس المالكي**: في الجواهر: إلىٰ **أربعين**.

وقال النووي: **الأصح المختار أن الشاب: من بلغ؛ ولم يجاوز الثلاثين، ثم هو كهل إلىٰ أن يجاوز الأربعين، ثم هو شيخ**.

وقال **الروياني** وطائفة: من جاوز الثلاثين سُمِّيَ شيخا، زاد

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٤/ ٩١، فتح القدير ٤/ ٦٢٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٧٤.

**ابن قتيبة**: إلى أن يبلغ الخمسين.

وقال **أبو إسحاق الأسفراييني** عن الأصحاب: **المرجع في ذلك إلى اللغة**، وأما بياض الشعر فيختلف باختلاف الأمزجة)[١].

قال **المناوي**: (ففي النهاية: الكهل من زاد عن ثلاثين إلى **أربعين**، وقيل: من ثلاث وثلاثين إلى خمسين وفي الصحاح: من جاوز الثلاثين وخَطَهُ الشيب)[٢].

وقد قال **أبو جعفر النحاس**: وإنّما الكهل عندهم من ناهز **الأربعين** أو قاربها[٣].

ولقد أسهب أهل اللغة وعلومها في معاني: الأشد، والاستواء، والشباب، والرشد، والشيخوخة، والكهولة، وعلاقاتها **بالأربعين**.

وحيث أوصى **الأسفراييني** بالرجوع إلى اللغة ـ كما سبق ـ؛ فسنأخذ بعض ما قال أهلها فيما يلي:

قال **ابن منظور**: (استوى الشيء اعْتَدَل، واسْتَوَى الرجل: بلغ أشُدَّه وقيل بلغ **أربعين** سنة.

---

(١) فتح الباري ٩/ ١٠٨ .

(٢) فيض القدير ١/ ٨٩ .

(٣) فتح الباري ٦/ ٤٧٢ .

قال **الفراء**: الاستواء في كلام العرب على وجهين، **أحدهما**: أن يَسْتَوِي الرجل وينتهي شبابُه وقوَّته، أو يستوي عن اعوجاج.

**وقيل**: إن معنى استوى هاهنا بلغ **الأربعين**.

وقوله - عز وجل - ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ﴾ [القصص: ١٤]

**قيل**: إن معنى استوى هاهنا بلغ **الأربعين**.

قال **أبو منصور**: وكلام العرب: **أن المجتمع من الرجال المستوي الذي تم شبابه**، وذلك إذا تمت له ثمان وعشرون سنة، فيكون مجتمعاً مستوياً إلى أن يتم له ثلاث وثلاثون سنة.

**ثم يدخل في حدِّ الكهولة، ويحتمل أن يكون بلوغ الأربعين غاية الاستواء وكمال العقل.**

والمستوي: التامُّ في كلام العرب: الذي بلغ الغاية في شبابه وتمام خلقه وعقله. **واستوى الرجل إذا انتهى شبابه)**[1].

وقال: (**والكهل: الرجل إذا وخطه الشيب ورأيت له بجالة، وفي الصحاح: الكهل من الرجال الذي جاوز الثلاثين ووخطه الشيب.**

قال **ابن الأثير**: الكهل من الرجال من زاد على ثلاثين سنة

---

(١) لسان العرب ١٤/ ٤١٤.

إلىٰ الأربعين، **وقـــيل**: هـو مـن ثلاث وثلاثين إلىٰ تمام الخمسين)(١).

وإنه ليـوجـد في كل زمـان ومكان من الشـبـاب من يكون كهلاً في عقله، وحكمته وتجاربه، وفضله وعلمه، فهذا ابن عـبـاس يُجْلسه عـمـر مع أشيـاخ الصـحـابة رضي الله عنهم أجمعين؛ وذلك لعلمه، وحكمته(٢).

حتىٰ إنه حقّ فيه، وفي أمثاله قول الشاعر:

**حـــمـــاه وهـو غـلام غـيـر مكتـــهل**
**عن المطامع فـــضل فـــيـــه مكتـــهل**

ويحق فيهم قول النيسابوري لّماّ مدح أبا حفص عمر المطوعي، بأنه (شاب لبس بُرْدَ شبابه، علىٰ عقل مكتهل، وفضل مقتبل)(٣).

ومن الناس المباركين من لم يعش إلا **أربعين** سنة، أو أقل، لكنها علىٰ هدي الرسول ﷺ، كشباب الصحابة رضي الله

(١) لسان العرب ١١/ ٦٠٠، مختار الصحاح ص ٥٨١ مؤسسة علوم القرآن، القاموس المحيط ص/ ١٣٦٣ مؤسسة الرسالة.

(٢) رواه البخاري.

(٣) يتيمة الدهر لأبي منصور النيسابوري ٤/ ٤٣٣، دار الفكر، بيروت.

عنهم: ومنهم مصعب بن عمير، وعامر بن فهيرة[(١)].

وفي **التابعين**: عمر بن عبدالعزيز رحمه الله الخليفة الراشد الخامس كما عدّه الكثير من أهل العلم[(٢)].

يقول **العقاد**: كنت شيخاً في شبابي، فلا عجب أن أكون شاباً في الشيخوخة،.. إن الشاب المرح المندفع في شِرّته وعنفوانه يبعثر قواه عاجلاً، ويستنفد رأس ماله سريعاً، فيخطو إلى الشيخوخة خطوات واسعات، كأنه يسير إليها بكل قوة الصبا والفتوة، إن الشاب الذي يحس الشيخوخة قبل أوانها يتأنى ويتئد، فلا يصل إلى شيخوخته في الأوان[(٣)].

(١) الطبقات الكبرى ٣/ ١٢١، ٢٣١، صفة الصفوة ١/ ٣٩٢، ٤٣٢ لابن الجوزي دار المعرفة بيروت.

(٢) تقريب التهذيب ٢/ ص٥٩، دار المعرفة بيروت.

(٣) من كتاب (أنا) للعقاد ١٢٢ ـ ١٢٣.

## الأربعون...والشعراء

ولابد أن للشعراء رأياً ومقالاً في الأربعين، ومن وصل إليها، فإنهم أهل تجارب وحكمة.

قال ﷺ: **«إن من الشعر حكمة»**(١).

قال ﷺ: **«إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً»**(٢).

وفي الشعراء موفقون، فهذا الرامهرمزي يحكي الواقع الذي لا غموض فيه:

**وفي الأربعين إذا ما عاشها رجل**
**ما أوضح الحق والتبيان للرجل**

وهذا أحدهم قُدِّمت له خمر فأنكر هذا الأمر على من قدمها إليه؛ خصوصاً أنه تركها في شبابه باقتناع، فكيف به وقد وفىَّ الأربعين عاما؟!، فقال:

**فقلت اصطبحها، أو لغيري فاهدها**
**فما أنا بعد الشيب ويحك والخمر**

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني برقم ٢٢١١ في صحيح الجامع.

تعَفَّفتُ عنها في العصور التي مضت
فكيف التصابي بعدما كمل العمر
إذا المرء وفَّى الأربعين ولم يكن
له دون ما يهوىٰ حياءٌ ولا ستر
فدعه ولا تنفس[1] عليه الذي أتىٰ
وإن جرَّ أسباب الحياة له الدّهر

وهذا سحيم بن وثيل[2] يُذكر الشعراء بأنه قد تجاوز الأربعين؛ فماذا يريدون منه؟!:

وماذا يدرك الشعراء مني
وقد جاوزت حد الأربعين
أخو خمسين مجتمعٌ أشدي
وتجديني مداورة الشؤون

وإن كان قد ضبطت في أماكن أخرىٰ كما يلي:

وماذا يَدَّري الشُّعَراء منِّي
وقد جاوَزْتُ حَدَّ الأربعين
أخُو خَمْسِينَ مُجتمعٌ أشُدِّي
ونَجِّذَني مُداوَرَةُ الشُّؤُونِ

(١) ولا تنفس عليه: أي لا تعدّ عمله نفيساً.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ١٦٤ .

أي مـاذا يخـاتل ويخـادع الشـعـراء، وقـد جـاوزت حـدَّ الأربعين سنة؟!

ونَجَّذني أي: جربت الأمور، وعرفتها وأحكمتها.

ورحم الله دعبل الخزاعي؛ فقد بيّن فصدق، ووعظ فأوجز، لما دعا المرء إلى أن يكون له وازع من نفسه وإن أبت، فقال:

**الجـــهل بعـــد الأربعين قـــبـــيح**
**فَـــزَعِ الفـــؤاد وإن ثناه جـــمـــوح**

وصدق من قال: **وإنَّ صبَا ابن الأربعين لسُبَّةٌ**.

أي: إنّ مـيل صـاحب **الأربعين** إلى التـصـابي وأفـعـال الجهال؛ لَعَارٌ عليه، وسبب لشتمه.

وما أقـرب هذا التشبيه إلى الواقع، ومن هذا الشاعـر لحال من بلغ **الأربعين**، وما يكون بعدها:

**كـــأن الفـــتى يرقى من العـــمـــر سُلّمـــا**
**إلى أن يحـــوز الأربعين فـــينحط**

ويُنكر ابن الأعـرابي على من تزين له الإثـم في هذا السن؛ فيقول:

**أحين بَلَغْتُ الأربعين وأُحْـــصِـــيَتْ**
**علـيَّ إذ لـم يَعْفُ ربي ذنوبُهـــا**

وهذا المرّار الفقعسي يستغرب السؤال عن عمره؛ وقد دنت له الأربعون:

**ما يسأل الناس عن سنِّي وقد قَدِعَتْ**
**لي الأربعون وطال الورد والصدر**

وإن ضبطت قُدِعت؛ فيكون معناها: وقد مضت الأربعون.

وهذا شاعر يستنكر التمادي في الغيِّ بعد الأربعين، حيث لا عذر لمن أطال رسن (حبل أو زمام) غيِّه:

**ما عذر من جرّ غاويا رَسَنَه**
**ما عذره بعد أربعين سنه**
**أكلّما طالت الحياة به**
**أطال عن أخذ حذره رسنه**
**قل لي إذا مت كيف تنتقص**
**من سيئة أو تزيد في حسنه**

وهذا آخر استغرب هجوم الشيب قبل الأربعين؛ لكنّه أقرَّ بجدية الأمر، فخرج منه بحكمة:

**علا الشيب فاستولى على الهزل جده**
**وأقمر في داج من الغي رشده**

أَقَبْلَ حلول الأربعين تسرَّعت
طلائعُه نحوي وطبق رفده
أرى كل يوم مرَّ من عمر الفتى
إذا ما تقضى أعجز المرء رده

وابن التعاويذي ينكر على من يتكلف اللعب والعبث بعد هذا السن، فيقول:

يا طالباً بعد المشيب غضارة
من عيشه، ذهب الزمان المذهب
أتروم بعد الأربعين تعدُّها
وصل الدُّمى؟ هيهات عزَّ المطلب

## الأربعون ... والطب والعلوم الاجتماعية

معلوم أن لكل فترة عمرية خصائصها العضوية والنفسية؛ والتي تميزها وتختلف بها عما سواها.

والأطباء يقولون: إن مرض السكري إذا أتى قبل **الأربعين** كان وراثياً أما بعدها فمكتسب[١].

وتُنصح المرأة بالحمل والإنجاب إلى أن يصل عمرها **أربعين** سنة، وفيما بعدها فإنها تحتاج إلى مزيد متابعة.

كما سمعت عن كثير من الحالات التي يراد إجراء بعض أنواع العمليات لها أن الأطباء ينصحون بعملها قبل **الأربعين**؛ حيث تقل نسبة النجاح، أو الفائدة المتوقعة إذ عملت بعد **الأربعين**.

وفي العلوم الاجتماعية أو الإنسانية تسمّى الفترة العمرية (من ١٨ إلى ٣٠ سنة: الرشد المبكر، والتي تعقبها مرحلة

---

(١) في خدمة مريض السكر ص ١١ ـ ١٢.

الرشد وهي ما بين ٣١ ـ ٦٠ سنة، وتذوي طاقاتها من الناحية النفسية والجسدية بالتدريج، ثم تعقبها مرحلة الشيخوخة: الستين وما بعدها)[١].

وفي ميدان الرياضة يندر أن يوجد من يجاوز **الأربعين**؛ وهو يمارس الرياضات التي تحتاج إلى لياقة بدنية عالية، وإن كان يستفاد منه في نواحي تدريبية أوإدارية لخبراته فيما سلف.

ولكن ينتبه إلى أنه (ليس معنى انتهاء الشباب أن النشاط العقلي والذهني للفرد قد انتهى، فكثير ممن تخطَّوا سن الشباب ظلوا قادة للفكر، والقيادة الواعية)[٢].

---

(١) قراءات في علم الاجتماع ص ٩٦ . د. أحمد كمال، مكتبة الخانجي ص ٢ .
(٢) مبادئ في الصحة العامة ص ٢٤٥، د. فريحات وآخرون، دار اليازوري، الأردن.

## ما المطلوب ممن بلغ الأربعين أو تجاوزها؟

لن أوصي صاحب **الأربعين** ببرنامج رياضي، أو برنامج غذائي: يناسبان هذه المرحلة الجديدة وخصائصها العضوية ـ ولا غضاضة في ذلك إن فعلت ـ ولكن لأن هذه الأمور يمكن الوصول إليها من طرق أخرىٰ، ومن متخصصين في هذا الشأن، ولأن البدن قد استوفىٰ منّا مراده، فسأُذَكِّر ببعض المطالب الأخرىٰ، متعلقة بالروح، بالقلب، فإن الأمر كما قال الشاعر:

**ابدأ بروحك فاستكمل فضائلها**

**فأنت بالروح لا بالجسم إنسان**

وإنَّ خير ما يطلب ممن بلغ **الأربعين** هو ما بينه الخلاق العليم في قوله: **﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** [الأحقاف: ١٥].

**﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾**، (يقول: **أغرني بشكر نعمتك**

التي أنعـمت عليّ في تعريفك إياي توحيدك، وهدايتك لي للإقرار بذلك، والعمل بطاعتك، وعَلَىٰ وَالِدَيَّ من قبلي، وغير ذلك من نعمك علينا، و**ألهمني ذلك**، وأصله من وَزَعْتُ الرجلَ على كذا: إذا دفعتُه عليه. وكان ابن زيد يقول في ذلك: اجعلني أشكر نعمتك)[١].

وإنَّ كلمة ﴿أَوْزِعْنِي﴾ عند جمهور المفسرين بمعنىٰ: ألهمني.

وأصله: أولعني، من أوزعته بكذا، أي أولعته به.[٢].

وجاءت ﴿أَوْزِعْنِي﴾ أيضاً بمعنىٰ رغبني ووفقني، من أوزعته بكذا: أي جعلته مولعاً به راغباً في تحصيله[٣].

قال **ابن منظور**: (وقد أوزَعَ به وُزُوعاً: كأولعَ به وُلُوعاً، وأوزَعَه الشيء: أَلْهَمَه إياه.

﴿أَوْزِعْنِي﴾ أَلْهِمْني وأَوْلِعْني به، وتأْويلُه في اللغة كُفَّني عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك، وكُفَّني عما يُباعدُني عنك.

وحكىٰ **اللحياني**: لِتُوزَعْ بتقوىٰ الله، أي لِتُلْهَمْ بتقوىٰ الله.

---

(١) تفسير الطبري ٢٦/ ص ١٧، تفسير أبي السعود ٥/ ١٢٨.

(٢) تفسير البيضاوي ص ٦٦٧.

(٣) تفسير الألوسي ٢٦ / ص ١٩.

قال ابن سيده: لِتُوزَعْ بتقوىٰ الله من الوُزُوع الذي هو الوُلُوعُ، وذلك لأنه لا يقال في الإلهام أوزعته بالشيء، إنما يقال أَوْزَعْته الشيء، وقد أَوْزَعَهُ الله إذا ألهمه، واستَوْزَعْتُ الله شكره فأَوْزَعَني أي استَلْهمْتُه فأَلْهَمَني، ويقال: قد أَوْزَعْتُه بالشيء إيزاعاً إذا أغْرَيته، وإنه لُموزَعٌ بكذا وكذا أي مُغْرىً به، والاسم الوَزُوعُ، وأُوزِعْتُ الشيء: مثل أُلْهِمْتُه وأُوْلِعْتُ به)[1].

قال الشوكاني: وفي هذا دليل علىٰ **أنه ينبغي لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات**[2].

قيل **لمسروق**: متىٰ يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال **إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك**[3].

(ونقلوا أن أهل المدينة كانوا إذا بلغ أحدهم **أربعين** سنة، تخلىٰ عن العلائق والعوائق، وتفرّغ للعبادة)[4].

وقال **عبدالله بن داود**: كان أحدهم إذا بلغ **أربعين** سنة طوىٰ

---

(١) لسان العرب ٨/ ٣٩٠ـ ٣٩١.

(٢) فتح القدير ٥/ ص١٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٨٨، صفة الصفوة ٣/ ٢٥، وقريباً منه عند الطبري في تفسيره ٢٢/ ١٤١.

(٤) رياض الصالحين ص ٩٥، تحقيق الألباني المكتب الإسلامي بيروت.

فراشه، أي كان لا ينام طول الليل[(١)].

ألا وإن خير الهدي هديُ محمد ﷺ، فقد كان ينام من الليل ويصلي، ولكن لعلَّهم - رحمهم الله - يقصدون الإكثار من القيام والصلاة، أكثر مما سبق **الأربعين**.

قال **مالك**: أدركت أهل العلم ببلدنا، وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتىٰ يأتي لأحدهم **أربعون سنة**، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس، واشتغلوا بالقيامة حتىٰ يأتيهم الموت[(٢)].

وإن كان أمر ترك المخالطة، واعتزال الناس هاهنا ليس علىٰ إطلاقه، لأنه قد صحَّ عنه ﷺ أن: **«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم»**[(٣)].

**فلعل قصدهم رحمهم الله: التقليل من الخلطة بعد هذا السن، للحاجة إلىٰ الذكر والاستغفار، والتفكر والتأمل، وشيء من الخلوة المحمودة الأثر.**

قال **ابن قتيبة**: (أوزعني: ألهمني، أصل الإيزاع: الإغراء

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٤١٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٠٧.

(٣) صحيح الجامع للألباني برقم ٦٥٢٧.

بالشيء، يقال: أوزعته بكذا، أي: أغريته به، وهو موزع بكذا، ومولع بكذا.

وقال **الزجاج**: تأويله في اللغة: كفني عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك، والمعنى: كفني عما يباعد منك، (وأن أعمل) أي: وألهمني أن أعمل ﴿صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾)(١).

جاء عند **ابن كثير**: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي ألهمني ﴿**أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ**﴾ أي في المستقبل ﴿**وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي**﴾ أي نسلي وعقبي ﴿**إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ **وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة** إلى الله - عز وجل - ويعزم عليها(٢).

(قال **ابن عباس والمفسرون** بعده: ألهمني، قال أبو إسحاق: وتأويله في اللغة كفني عن الأشياء، إلا نفس شكر نعمتك، ولهذا يقال في تفسير الموزَع: المولَع، ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ موزعاً بالسؤال أي مولعاً به، كأنه كُفَّ ومنع إلا منه، وقال في الصحاح: وزعته أزعه وزعاً، كففته

(١) زاد المسير ٦/ ١٦٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤٢ .

فاتزع عنه أي كف، وأوزعته بالشيء: أغريته به، فأوزع به فهو موزع به، واستوزعت الله شكره فأوزعني، أي: استلهمته فألهمني، فقد دار معنى اللفظة على معنى ألْهِمْني ذلك، واجعلني مغرىً به، وكفني عما سواه)[١].

ولأن خير الكلام كلام الله تعالى، والأمر كما قيل: (كلُّ الصيد في جوف الفَرا)[٢].

فإن آية الأحقاف قد حوت المطلوب بأخصر عبارة وأوضحها، ففي الآية أمور، منها:

**أولاً:** طلب الإيزاع (وهو الإلهام والترغيب والتوفيق) من الله لعبده: أن يشكر نعمته، وأن يعمل صالحاً يرضاه سبحانه.

قال **القرطبي** بعد الآية: فذكر ـ عز وجل ـ أن من بلغ **أربعين** فقد آن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه وعلى والديه ويشكرها[٣].

**ثانياً:** أن يُصلح له في ذريته، وقد أخرج ابن أبي حاتم أن

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ١٢٤ دار التراث القاهرة.

(٢) قيل: هو أثر عنه ﷺ كما في لسان العرب ١٣/ ٤٨٤، وفي مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٤٩٨، وقيل هو: مثل.

(٣) تفسير القرطبي ٧/ ٢٧٦ .

رجلاً شكا ابنه إلىٰ طلحة بن مصرِّف رضي الله عنه فقال له طلحة: استعن عليه بهذه الآية: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ الآية[١].

لقد اختصر رضي الله عنه الإجابة، لكنه أفاد، وهذا فقه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

**ثالثاً**: أن يجدد التوبة والإنابة إلىٰ الله ـ عز وجل ـ، ويعزم عليها، ولا بدّ له من ذلك في كل وقت، ولكن في هذا السنٍّ أولىٰ، وذلك كما قال الهمذاني (لأن للشباب نزوة، وللأحداث رقة، **ولكن يربعون إذا جاءت الأربعون**، . . . ، والكهل قبيح به الجهل . . .)، يربع أي: يقف وينتظر[٢].

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٦٨ .

(٢) يتيمة الدهر ٤/ ٢٨٥ .

## الختام

إن ابن **الأربعين** عـاماً يكون ـ في الغـالب ـ قد مّر بتجارب كثيرة، ومواقف أكثر، حصّل منها خبرات معينة، وتكونت لديه اتجاهات محددة، واتخذ قرارات ليست باليسيرة، على الأقل في أموره الشخصية، وعلاقاته بالآخرين، وتعاملاته السابقة، واللاحقة.

ولأن الأمر كما قال عمر بن عبدالعزيز: **لقد تمت حجة الله على ابن الأربعين**[١].

فلم يَعُدْ له عذر في تقصير، أو إصرار على خطأ؛ ولو كان يسيراً، فقد زال عنه طيش الشباب، وتولى عنه التهور والعجلة.

ومن لم يصل في هذه السنّ إلى خير توجه، وأحسن تبدل، فماذا ينتظر؟!

هذا ولقد (كان يقال لصاحب **الأربعين** احتفظ بنفسك)[٢].

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٣٥ .

(٢) الطبقات الكبرى ٦/ ٢٧٧ .

أسْلُ عن دنيـــا عَـــلاك المشـــيبُ
وتصـابي الشـيخ شيء عـجـيب

ولقد توجَّه ابن الجوزي في أحد مواعظه إلىٰ ابن الأربعين، وخصَّه بالذكر، فقال:

يا من بلغ أربعين سنة، وكل عمره نوم وسِنة، ويا متعباً في جمع المال بدنه، ثم لا يدري لمن قد أخزنه؟ أعلم هذه النفس الممتحنة، أنها بكسبها مرتهنة، ألا يعتبر المغرور بمن قد دفنه[1].

هذا هدي سلفنا الصالح رحمهم الله، إذ لا غرابة عندهم في تخصيص ابن الأربعين بمثل هذه المواعظ الخاصة؛ والتي تكاد تكون منعدمة في وقتنا الحاضر، أَلا فلنقلها لأنفسنا كما قالوها، ولمن يمكننا الوصول إليه كما قالها أولئك الأخيار، (فالخير في اتباع من سلف).

وإنما هذه الرسالة تأتي في هذا السياق، أسأل الله أن يتقبلها، وأن ينفع بها.

**فيا بن الأربعين**؛ فما فوق: أعد النظر والتفكير فيما أنت

(١) المدهش في الوعظ لابن الجوزي ص ١٥١ المؤسسة العالمية بيروت.

فيه، وما أنت مقبل عليه، فإن ما بقي من العمر والطاقات والقدرات أقل مما ذهب، ومن كان محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان مقصراً فليستعتب، وليعزم على الخير.

**فَجُدَّ ولا تغفل وكن متيقظا**
**فعمّا قليل يترك الدار عامر**
**فشمِّر ولا تفتر فعمرك زائل**
**وأنت إلى دار الإقامة صائر**
**ولا تطلب الدنيا فإن نعيمها**
**وإن نلتَ منها غِبُّه لك ضائر**

على أني في الختام أوكد مرة أخرى، على أن ابن الأربعين أو أكثر يستطيع أن يبذل الكثير، ويقدم الأحسن، ويعطي بلا حدود، سواء في شأن دنيوي يرضاه الله، أو في شأن أخروي يحبه الله؛ وذلك لما وصل إليه من مزايا سبق ذكرها، فهو كما قال الشاعر:

**الشيب أن يظهر فإن وراءه**
**عمراً يكون خلاله متنفس**
**لم ينتقص مني المشيب قلامة**
**ولَنَحْنُ حين بدا الْبُّ وأكيس**

وأخيراً: الحمد لله الذي علّمنا ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

أحمدُه: والتوفيقُ للحمد من نعمه، وأشكره؛ والشكرُ كفيلٌ بالمزيد من فضله وكرمه وقسمه، وأستغفره وأتوب إليه من الذنوب التي توجب زَوَال نعمه وحلول نقمه[١].

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله محمد، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين، وأتباعه بإحسان إلىٰ يوم الدين.

---

(١) من مقدمة كتاب إعلام الموقعين لابن القيم ص ٤ دار الفكر بيروت.

# الفهرس